

تفسير البحر المحيط

. @ 160 @

{ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ }
كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الظَّالِمِينَ { : قال الزمخشري : بل كذبوا ، بل سارعوا إلى التكذيب بالقرآن ، وفاجأوه
في بديهة السماع قبل أن يفهموه ويعلموا كنه أمره ، وقبل أن يتدبروه ويفقهوا تأويله
ومعانيه ، وذلك لفرط نفورهم عما يخالف دينهم ، وشراذهم عن مفارقة دين آبائهم . وقال
ابن عطية : هذا اللفظ يحتمل معنيين : أحدهما : أن يريد بما الوعيد الذي توعدهم الله على
الكفر ، وتأويله على هذا يريد به ما يؤول إليه أمره كما هو في قوله : { هَلْ
يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ } والآية محلها على هذا التأويل يتضمن وعيدا ، والمعنى
الثاني : أنه أراد بل كذبوا بهذا القرآن العظيم المنبئ بالغيوب الذي لم يتقدم لهم به
معرفة ، ولا أحاطوا بمعرفة غيوبه وحسن نظمه ، ولا جاءهم تفسير ذلك وبيانه . وقال أبو عبد
الله الرازي : يحتمل وجوهاً ، الأول : كلما سمعوا شيئاً من القصص قالوا { أَسَاطِيرُ
الْأَوَّلِينَ } ولم يعرفوا أن المقصود منها ليس نفس الحكاية ، بل قدرته تعالى على
التصرف في هذا العالم ، ونقله أهله من عز إلى ذل ، ومن ذل إلى عز ، وبفناء الدنيا ،
فيعتبر بذلك . وأن ذلك القصص بوحى من الله ، إذ أعلم بذلك على لسان رسول الله صلى الله عليه
وسلم) من غير تحريف مع كونه لم يتعلم ولم يتعلم . الثاني : كلما سمعوا خروف التهجي
ولم يفهموا منها شيئاً ساء ظنهم ، وقد أجاب الله بقوله : { مِّنْهُ آيَاتٌ * بِآيَاتِهِ }
الآية . الثالث : ظهور القرآن شيئاً فشيئاً ، فساء ظنهم وقالوا : { لَوْ لَا نُزِّلَ
عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً } وقد أجاب تعالى وشرح في مكانه . الرابع :
القرآن مملوء من الحشر ، وكانوا ألفوا المحسوسات ، فاستبعدوا حصول الحياة بعد الموت ،
فبين الله صحة المعاد بالدلائل الكثيرة . الخامس : أنه مملوء من الأمر بالعبادات ، وكانوا
يقولون : إله العالم غني عن طاعتنا ، وهو أجل أن يأمرنا بما لا فائدة له فيه . وأجاب
تعالى بقوله : { إِنَّ أَوَّلَ سَنَتُهُمْ أَخْذُ سَنَتُهُمْ } الآية وبالجمله فشبه الكفار كثيرة ،
فلما رأوا القرآن مشتملاً على أمور ما عرفوا حقيقتها ولا اطلعوا على وجه الحكمة فيها
كذبوا بالقرآن فقوله : بما لم يحيطوا بعلمه ، إشارة إلى عدم علمهم هذه الأشياء وقوله :
ولما يأتهم تأويله ، إشارة إلى عدم جهدهم واجتهادهم في طلب أسرار ما تضمنه القرآن
انتهى ملخصاً . .

وقال الزمخشري : (فإن قلت) : ما معنى التوقع في قوله تعالى : ولم يأتهم تأويله ؟
(قلت) : معناه أنهم كذبوا به على البديهة قبل التدبر ، ومعرفة التأويل تقليداً للآباء ،
وكذبوه بعد التدبر تمرداً وعناداً فذمهم بالتسرع إلى التكذيب قبل العلم به ، وجاء
بكلمة التوقع ليؤذن أنهم علموا بعد علوّ شأنه وإعجازه لما كرر عليهم التحدي ورازوا
قواهم في المعارضة ، واستيقنوا عجزهم عن مثله ، فكذبوا به بغياً وحسداً انتهى . ويحتاج
كلامه هذا إلى نظر . وقال أيضاً : ويجوز أن يكون المعنى : ولما يأتهم تأويله ، ولما
يأتهم بعد تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب أي عاقبته ، حتى يتبين لهم أكذب هو أم صدق ؟
يعني : أنه كتاب معجز من جهتين : من جهة إعجاز نظمته ، ومن جهة ما فيه من الإخبار
بالغيوب . فتسرعوا إلى التكذيب به قبل أن ينظروا في نظمته وبلوغه حد الإعجاز ، وقبل أن
يخبروا إخباره بالمغيبات وصدقه وكذبه انتهى . وبقيت جملة الإحاطة بلم ، وجملة إتيان
التأويل بلما ، ويحتاج في ذلك إلى فرق دقيق . والكاف في موضع نصب أي : مثل ذلك التكذيب
كذب الذين من قبلهم ، يعني : قبل النظر في معجزات الأنبياء وقبل تدبرها من غير إنصاف من
أنفسهم ، ولكن قلدوا الآباء عاندوا . قال ابن عطية : قال الزجاج : كيف ، في موضع نصب
على خبر كان ، لا يجوز أن يعمل فيه انظر ، لأن ما قبل الاستفهام لا يعمل فيه ، هذا قانون
النحويين لأنهم عاملوا كيف في كل مكان معاملة الاستفهام المحض . في قولك : كيف زيد ؟
ولكيف تصرفات غير هذا محل المصدر الذي هو كيفية ، وينخلع معنى الاستفهام ، ويحتمل
هذا الموضع أن يكون منها ومن تصرفاتها قولهم : كن كيف شئت ، وانظر قول البخاري : كيف
كان بدء الوحي ، فإنه لم يستقيم انتهى . وقول الزجاج : لا يجوز أن يعمل فيه انظر ،
وتعليله : يريد لا يجوز أن تعمل فيه انظر لفظاً ، لكن الجملة في موضع نصب لا نظر معلقة
، وهي من نظر القلب . وقول ابن عطية : هذا قانون النحويين إلى آخر تعليله ، ليس كما